شرح الأربعين النووية

الحديث الثامن عشر

اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ

اللقاء الواحد والعشرون

الحديث الثامن عشر:

عَنْ أَبِيْ ذَرٍّ جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ وَأَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ " رواه الترمذي وقال: حسنٌ صحيح.

ترجمة الراوي:

أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه: المشهور أن اسمه: جُنْدُبِ بنِ جُنَادَةَ بن قيس

قال الذهبي رحمه الله:" أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد -ﷺ-.

قيل: كان خامس خمسة في الإسلام. ثم إنه رد إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي -ﷺ- له بذلك، فلما أن هاجر النبي -ﷺ- هاجر إليه أبو ذر رضي الله عنه ولازمه وجاهد معه. وكان يفتي في خلافة أبي بكر عمر وعثمان.

" كَانَ رَأْساً فِي الزُّهْدِ وَالصِّدْقِ وَالعِلْمِ وَالعَمَلِ قَوَّالاً بِالحَقِّ لاَ تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ ".

وقد شهد فتح بيت المقدس مع عمر. "سير أعلام النبلاء" (3/ 367368).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ: (مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ، وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ، مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ) أخرجه الترمذي.

عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن أبي ذر فقال: " وَعَى عِلْمًا، شَحِيحًا حَرِيصًا؛ شَحِيحًا عَلَى دِينِهِ، حَرِيصًا عَلَى الْعِلْمِ، وَكَانَ يُكْثِرُ السُّؤَالَ، فَيُعْطَى وَيُمْنَعُ، أَمَا أَنْ قَدْ مُلِئَ لَهُ فِي وِعَائِهِ حَتَّى امْتَلأَ " انتهى. روى الضياء في "المختارة"

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ: " وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ مَا انْبَسَطْتُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، وَلَا تَقَارَرْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَنِي يَوْمَ خَلَقَنِي شَجَرَةً تُعْضَدُ وَيُؤْكَلُ ثَمَرُهَا".

وأما الراوي الثاني للحديث فهو: مُعَاذُ بْنُ جَبَلِ بنِ عَمْرِو بنِ أَوْسٍ الأَنْصَارِيُّ، السَّيِّدُ الإِمَامُ، أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَنْصَارِيُّ، الخَزْرَجِيُّ المَدَنِيُّ، البَدْرِيُّ، شَهِدَ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ مَعَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَشَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ ابْنُ عِشْرِينَ أَوْ إِحْدَى وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَشَهِدَ أَيْضًا أُحُدًا، وَالْخَنْدَقَ، وَالْمَشَاهِدَ كُلَّهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ابْنُ الْعِشْرِينَ هذا كَانَ أُمَّةً وَحْدَهُ، يَكْفِيهِ شَرَفًا أَنَّهُ كَانَ رَدِيفَ النَّبِيِّ -ﷺ- فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ وَقَالَ له: "يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ"، فَقَالَ: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ" أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ.

قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: "خُذُوا القُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ". مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قالَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إِنَّ مُعاذَ بنَ جَبَلٍ كَانَ أُمَّةً قانِتًا للهِ حَنيفًا ولَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ، .... كانَ يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ، وكَانَ مُطيعًا لِلَّهِ ولِرَسُولِهِ"

قَالَ عَنهُ فَارُوقُ الأُمَّةِ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَنْ أَرَادَ الْفِقْهَ فَلْيَأْتِ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ". أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ.

فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ -ﷺ-أَنَّهُ قَالَ: "أَعْلَمُ أُمَّتِي بِالْحَلَالِ والْحَرامِ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ".

واسْتَمَرَّتِ الْحَيَاةُ بِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، يُعَلِّمُ النَّاسَ بِلُطْفٍ وَأَنَاةٍ وَوَقَارٍ، وَكَانَ يَتَذَكَّرُ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ الْمَوْتَ، كُلَّمَا تَذَكَّرَ الْمَوْتَ نَسِيَ جُلَّاسَهُ الَّذِينَ حَوْلَهُ وَيَقُولُ: "واللهِ إِنِّي أَتَذَكَّرُ الْمَوْتَ فَيَمُوتُ كُلُّ عُضْوٍ مِنِّي مَكَانَهُ".

وَفَاضَتْ رُوحُهُ الطَّاهِرَةُ -فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ- وهو ابن ثمان وثلاثين سنة.

منزلة الحديث:

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث جامع لسائر أحكام الشريعة؛ إذ هي لا تخرج عن الأمر والنهي، فهو كل الإسلام؛ لأنه متضمن لما تضمنه حديث جبريل من الإيمان والإسلام والإحسان.

قال ابن علان الصديقي رحمه الله: وهذا من جوامع كلمه -ﷺ-؛ فإن التقوى وإن قل لفظها جامعة لحقوقه تعالى؛ إذ هي اجتناب كل منهي عنه، وفعل كل مأمور به، فمن فعل ذلك فهو من المتقين الذين شرَّفهم الله تعالى في كتابه بأنواع الكمالات.

شرح الحديث:

((اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ))؛

التقوى شيء عظيم ومنزلة سامية وهي أساس الدين ولا حياة إلا بها، بل إن الحياة بغيرها لا تُطاق، بل هي أدنى من حياة البهائم، فليس صلاحٌ للإنسان إلا بالتقوى، هي كنزٌ عزيز لئن ظفرنا به فكم نجد فيه من جوهر شريف وخيرٍ كثير ورزق كريم وفوز كبير وملكٍ عظيم، فكأن خيرات الدنيا والآخرة جُمِعَت فجُعِلَت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى...! نتأمل القرآن وكم تكرر ذكر التقوى، فكم عُلِّق بها من خير، وكم وُعِد عليها من خير وثواب، وكم أضيف إليها من سعادة...!

التقوى هي: أساس الدين، وبها يرتقى إلى مراتب اليقين، هي زاد القلوب والأرواح فبها تقتات وبه تتقوى وعليها تستند في الوصول والنجاة...

والتقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه وقاية، وتقوى العبد لربه: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضبه وسخطه وقاية تقيه من ذلك بفعل طاعته واجتناب معاصيه.

"اتَّقِ اللهَ" أي: اتقه في الخلوة كما تتقيه بحضرة الناس، واتقه في سائر الأمكنة والأزمنة، ومما يعين على التقوى استحضار أن الله تعالى مطلع على العبد في سائر أحواله؛ قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، والتقوى كلمة جامعة لفعل الواجبات وترك المنهيات.

وقال طلق بن حبيب: " التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللهِ تَخَافُ عِقَابَ الله ".

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: الْمُتَّقُونَ: الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللهِ عُقُوبَتَهُ".

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)[آل عمران:102] قال: " أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ ".

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: " لَيْسَ تَقْوَى اللهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ وَلاَ بِقِيَامِ اللَّيْلِ وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللهِ: تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ الله.

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- التقوى فقال: "هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

خلّ الذنـــوب صغيرها وكبيرها ذاك التقـــى واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر مايـــرى

لا تحقرنّ صغيرة إن الجـــــبال من الحصى

✉نتكلم عن التقوى لأن التقوى هي التي تصحبنا إلى قبورنا فهي المؤنس لنا من الوحشة والمنجية لنا من عذاب الله العظيم.

✉دخل علي –رضي الله عنه– المقبرة فقال: "يا أهل القبور ما الخبر عندكم: إن الخبر عندنا أن أموالكم قد قُسِّمت، وأن بيوتكم قد سُكنت، وأن زوجاتكم قد زُوجّت، ثم بكى، ثم قال: والله لو استطاعوا أن يجيبوا لقالوا: إنا وجدنا أن خير الزاد التقوى".

قال الشاعر:

إذا أنْتَ لمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التّقَى وَلاقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَن قد تزَوَّدَا

نَدِمْتَ على ألاَّ تَكُونَ كمِثْلِهِ وأنكَ لمْ تُرْصِدْ لِمَا كانَ أَرْصَدَا

قال ابن عمر أَخَذَ رَسولُ اللَّهِ –ﷺ– بمَنْكِبِي، فَقَالَ:" كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وكانَ ابنُ عُمَرَ، يقولُ: إذَا أمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذَا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ". صحيح بخاري

✉ومن وصايا عيسى عليه السلام لأصحابه أنَّه قال لهم: اعبُروها ولا تَعمُرُوها، وقال: من ذا الذي يبني على موجِ البحر داراً، تلكُمُ الدُّنيا، فلا تتَّخذوها قراراً.

🗐وكان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يقول: إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

✉جعل الله التقوى هي ميزان الحقِّ الذي يوزن به الناس، لا ميزان الحَسَب والنسب والمال والشهرة؛ فقال الله عز وجل:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[الحجرات: 13].

✉وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله جلَّ وعلا عليم خبير، بخلاف المنازل عند الناس، الذي ينظرون الى الظاهر دون الباطن، فكلما زاد المنصب، والثروة، والنسب، ارتفعت منزلته في قلوبهم، ولو كان عند الله من أوضع الناس بمعاصيه، كم من انسان كثير الثياب عاري الثواب مذكور في الأرض مجهول السماء، وكم من انسان عاري الثياب كثير الثواب مجهول في الأرض مذكور في السماء! من أراد أن يرتفع في جنات النعيم إلى عليين فليتق الله.

عن ابنِ مَسعودٍ رضي الله عنه (أنَّه كان يَجتَني سِواكًا مِن الأراكِ، وكان دَقيقَ السَّاقَينِ، فجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكفَؤه، فضَحِكَ القَومُ منه، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مِمَّ تَضحَكون؟! قالوا: يا نبيَّ اللهِ، مِن دِقَّةِ ساقَيهِ، فقال: والذي نفْسي بيَدِه، لَهُمَا أثْقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ). رواه أحمد.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ يُقَالُ لَهُ زَاهِرُ بْنُ حَرَامٍ ، كَانَ يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْهَدِيَّةَ ، فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّ زَاهِرًا بَادِينَا ، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ " ، قَالَ : فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبِيعُ مَتَاعَهُ ، فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَالرَّجُلُ لا يُبْصِرُهُ ، فَقَالَ : أَرْسِلْنِي ! مَنْ هَذَا؟ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ أَنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يُلْزِقُ ظَهْرَهُ بِصَدْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ "؟! فَقَالَ زَاهِرٌ: تَجِدُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ كَاسِدًا، قَالَ: " لَكِنَّكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِدٍ "، أَوْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " بَلْ أَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ ". ابن حبان صححه الالباني

✉والتقوى وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) [النساء:132].

✉التقوى وصية النبي -ﷺ-لأمته فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه: قال: وعَظَنَا رسولُ اللهِ -ﷺ-مَوْعِظَةً وجِلَتْ منها القلوبُ، وذَرَفَتْ منها العيونُ، قال: فقلْنَا: يا رسولَ اللهِ، كأَنَّ هذه مَوْعِظَةُ مُودِّعٍ، فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى اللهِ والسمعِ والطاعةِ وإن عبدًا حبشيًّا" صحيح أبي داود

وكان من دعاء النبي -ﷺ-: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَن زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

✉وكتب عمر بن عبد العزيز – رحمه الله تعالى– إلى رجل:" أوصيك بتقوى الله عز وجل التي لا يُقبل غيرها، ولا يُرحم إلا أهلها، ولا يُثاب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل".

✉والتقوى محلها القلب، كما قال -ﷺ-قال: "التَّقْوَى هَاهُنَا وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ". رواه مسلم.

🗐يقول ابن رجب رحمه الله: " وإذا كان أصلُ التَّقوى في القُلوب، فلا يطَّلعُ أحدٌ على حقيقتها إلا الله عز وجل، كما قال -ﷺ-: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ" رواه مسلم، وحينئذٍ فقد يكون كثيرٌ ممن له صورة حسنة، أو مال، أو جاه، أو رياسة في الدنيا قلبه خراباً من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبُه مملوءاً من التقوى، فيكون أكرم عند الله عز وجل، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً". جامع العلوم والحكم لابن رجب

🖅والتقوى وتكون على ثلاث مراتب:

1- التوقّي من العذاب المخلّد صاحبه وهو المشرك الكافر، وذلك باتباع التوحيد وكلمة التوحيد وهي المقصودة بقوله تعالى: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى) [الفتح:26].

2- أن تتقي كل ما يكون سبب للعذاب في النار ولو لبرهة يسيرة من كبائر وصغائر، وهو المتعارف عليه في الشرع.

3- أن يتنزه العبد عن ما يشغل نفسه عن الله تعالى ولو كان مباحات تشغله عن السير لله أو تُبَطّيء سيره، فهذه مرتبة الكُمّل وهذه المرتبة العالية فإن الانشغال بالمباحات يشغل القلب عن

الله عزوجل وربما يؤدي إلى القسوة وبالتالي يؤدي إلى الوقوع في المكروهات والمكروهات تؤدي للوقوع في المحرمات، وهذا مسلسل يعرفه الإنسان من نفسه في عدد من الأحيان.

📂إن تقوى الله – إذا استقرَّت في القلوب وارتسمت بها الأقوال والأعمال والأحوال– أثمرت من الفضائل والفوائد والثمار ما تصلح به الدنيا والآخرة، فمن ثمراتها في الدنيا:

❶حصول العلم النافع قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) [البقرة: 282]، وقال سبحانه:(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) [الأنفال: 29].

❷الخروج من المحن، وحصول الرزق الطيب للعبد من حيث لا يحتسب قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق:2–3].

❸أنهم ينالوا محبة الله، ومعيَّته، ومغفرته؛ وبذلك يتحقق لهم الفوز والفلاح، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) [التوبة:4] ، وقال سبحانه: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [البقرة:194] ، وقال عز وجل: (وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) [الأنفال:69] ، وقال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) [البقرة:189] .

❍وأما ثمرات التقوى في الآخرة فهي كثيرة وعديدة منها:

❶الفوز بجنات النعيم، وحصول الرفعة لهم والعاقبة الحميدة، قال تعالى: (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ) [القلم:34]، وقال سبحانه: (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [البقرة:212]، وقال سبحانه: (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) [الأعراف: 128].

❷ومن أعظم ثمرات التقوى لقاءُ الله ورؤيتُه يوم القيامة قال تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)[القمر :54–55].

✉نفهم أن المرء محتاج للتقوى ولو كان أعلم العلماء، وأتقى الأتقياء، يحتاج إلى التقوى؛ لأن الإنسان تمر به حالات يضعف فيها إيمانه وينقص، يحتاج إلى التقوى للثبات عليها، يحتاج إلى التقوى للازدياد منها.

✉اتق الله حيثما كنت، في السر والعلانية، في الشدة والرخاء، في الخلوة والجلوة.

✉فإنه لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية، مع أنه لا بد أن يقع منه –أحياناً– تفريط في التقوى، أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة، وهو أن يتبعها بالحسنة.

(اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا)

((وَأَتْبِعِ))؛ أي: ألحق ((السَّيِّئَةَ)) الصادرة منك ((الحَسَنَةَ)) صلاة أو صدقة أو استغفارًا أو نحو ذلك، ((تَمْحُهَا))؛ أي: تدفع الحسنةُ السيئةَ وترفعها، والمراد: يمحو الله بها آثارها من القلب، أو من ديوان الحفظة؛ وذلك لأن المرض بضده؛ فالحسناتُ يُذهِبْنَ السيئات.

✉المؤمن مهما اشتد حرصه وعظمت رغبته على تحقيق التقوى لابد مع ذلك من الوقوع في بعض الذنوب والخطايا، فقد قال –ﷺ–: "كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابونَ "أخرجه

الترمذي ، لما كان شأن المؤمن كذلك قال -ﷺ- ناصحًا: " وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا "، فانظروا إلى هذا الفضل العظيم، والإنعام الكريم من الرب الخالق الجليل، فإن الحسنات ماحية للسيئات: وقد جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- "أَنَّ رَجُلًا أصابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فأتَى النبيَّ -ﷺ-، فأخْبَرَهُ فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: (أَقِمْ الصَّلاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ) [هود: 114] فقالَ الرَّجُلُ: يا رَسولَ اللَّهِ ألِي هذا؟ قالَ: لِجَمِيعِ أُمَّتي كُلِّهِمْ". صحيح البخاري

فإتْبَاع السيئة الحسنة يمحوها، وهذا من عظيم فضل الله -جل وعلا- وجزيل إنعامه؛ ولهذا فإن العبد المؤمن حريٌّ به أن يكون مُكثِرًا من الحسنات، مواظبًا على الطاعات، مُجِدًّا في القربات؛ لأنها -بإذن الله جل وعلا- تذهب السيئات، وأعظم الحسنات الماحية للسيئات، حسنة التوبة؛ فإن التوبة حسنة عظيمة، وطاعة جليلة، والتوبة تجُبُّ ما قبلها، ومن تاب تاب الله عليه، ومهما عظم الذنب وكبرت الخطيئة فإن من تاب تاب الله عليه؛ يقول الله -تبارك وتعالى-: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً) [الزمر: 53]، وقوله: (لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)، أي توبوا إلى الله وأنيبوا إليه سبحانه؛ فإنه يغفر الذنب مهما عُظُم، فهو -جل وعلا- لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، ولا حاجة يُسألها أن يعطيها، فهو تواب رحيم، واسع كريم، محسن جواد، جل شأنه، وعظم اسمه؛ ولهذا العناية بالحسنات أمر عظيم، ومطلب جليل؛ ليكون مُذْهِبًا للسيئات، رافعًا للدرجات، معليًا للعبد مكانته في الدنيا والآخرة.

والحسنات مطهرة للعبد من أدرانه وأقذاره وأوساخه، تطهره وتنقيه بإذن الله؛ يقول العلامة ابن القيم -رحمه الله-: "فلأهلِ الذنوبِ ثلاثةُ أنهارٍ عظامٍ يتطهرون بها في الدنيا؛ فإن لم تفِ بطُهرهم طُهّروا في نهر الجحيم يوم القيامة: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيرًا أدخله أحدَ هذه الأنهارِ الثلاثة فوَرَدَ القيامة طيبًا طاهرًا فلم يحتج إلى التطهير الرابع". (مدارج السالكين).

فأما (التوبة النصوح) فهي التوبة الصادقة الخالصة، والمقصود بها أن يتوب العبد من ذنوبه وأن يعزم على عدم العودة للذنب مرةً أخرى؛ قال الحسن البصري رحمه الله: "هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مُجمعًا على أن لا يعود فيه". وهذه التوبة لا بد أن يجمعَها أربعةُ أشياء وهي: "الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان" (مدارج السالكين).

وهناك سنة مهجورة وهي صلاة التوبة، وتكون بعد وقوع المسلمِ في معصية سواء كانت كبيرة أو صغيرة، فيجب عليه أن يتوب منها فوراً، ويندب له أن يصلي هاتين الركعتين، فيعمل عند توبته عملاً صالحاً من أجل القربات وأفضلها، وهو هذه الصلاة، فيتوسل بها إلى الله تعالى رجاء أن تقبل توبته، وأن يغفر ذنبه.

قال رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ-: "مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ". صححه الألباني في صحيح أبي داود.

وأما (الحسنات المستغرقة للأوزار) فهي قول الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [هود:114]، فالحسنات الكثيرة تمحو السيئات الكثيرة وترفع الدرجات؛ وأفضل الحسنات هي التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالفرائض التي افترضها علينا من صلاةٍ، وصومٍ، وزكاةٍ، وحجٍ.

قال -ﷺ-: «أرأيتم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحدِكم يغتسلُ منهُ كل يومٍ خمسَ مراتٍ. هل يَبقى من درنِه شيءٌ؟» قالوا: لا يَبقى من درنِه شيءٌ. قال: «فذلك مثلُ الصلواتِ الخمسِ؛ يمحو اللهُ بهنَّ الخطايا» (أخرجه البخاري ومسلم، واللفظ له).

((وَخَالِقِ النَّاسَ))؛ أي: عاملهم وعاشرهم ((بِخُلُقٍ)) بسجية وطبع ((حَسَنٍ))؛ أي: جميل محبوب؛ كملاطفة، وطلاقة وجه، وبذل معروف، وكف أذى، فإن فاعل ذلك يرجى له في الدنيا الفلاح، وفي الآخرة الفوز بالنجاة والنجاح.

✉أي عاملهم بالمعاملة الطيبة والأدب الرفيع والخلق الكريم، وضابط ذلك والجامع له، أن تعامل الناس بالشيء الذي تحب أن يعاملوك به، وأن تأتي إليهم ما تحب أن يأتوا إليك، فهذا جماع حسن الخلق؛ ولهذا قال -ﷺ-: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ" صحيح البخاري، وجاء عنه في حديث آخر أنه قال -ﷺ-: "وليأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أنْ يُؤْتَى إليه" صحيح الجامع، فانظر إلى المعاملة التي تريدها لنفسك، والخُلُق الذي تريد أن تُعامل به فعامل به الآخرين، فإن هذا هو جماع حسن الخلق، فليس منا من يرضى أن يعامل بالفظاظة والغلظة، وليس منا من يرضى أن يعامل بالغش والخيانة والخديعة، وليس منا من يرضى أن يعامل بالكذب والتدليس ونحو ذلك، فحسنُ الخلق أن لا ترضى للناس الشيء الذي لا ترضاه لنفسك، وأن تحب لهم ما تحب لنفسك؛ ولهذا قال بعض العلماء في تعريف حسن الخلق: هو كف الأذى، وبذل الندى. كف الأذى عن الناس بأن لا يتعرض إليهم بأي نوع من أنواع الأذى، لا أذًى قولي، ولا أذًى فعلي، وبذل الندى بأن يعاملهم بالألفاظ الطيبة والأقوال الجميلة والمعاملات الحسنة التي يحب أن يعامل بها.

📧نسأل الله -جل وعلا- أن يرزقنا وإياكم تقواه في السر والعلانية، وأن يمنَّ علينا جميعًا بتوبة نصوحٍ، وأن يهدينا وإياكم لفعل الحسنات والإتيان بالطاعات، والتقرب إلى الله -جل وعلا- بما يرضيه من صالح الأقوال والأعمال، وأن يمنَّ علينا وعليكن بالأخلاق الكريمة والأداب العظيمة، أدب الشريعة، الذي أدب الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم- وخير أمته -صلوات الله وسلامه

عليه- وعلى من اقتدى به في عقيدته وعبادته وخلقه، اللهم اجعلنا من أتباعه حقًّا، ومن أنصاره صدقًا، ووفقنا للاقتداء به يا رب العالمين.

المراجع:

❶مع التقوى والمتقين: أمير بن محمد المدري.

❷تأملات في حديث اتق الله حيثما كنت: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر.

❸اتق الله حيثما كنت (الأربعون النووية): عبدالعال سعد الشليّه